قصة مثل

– ٢ –

فى المشمش

بقلم الدكتور

محمد ماهر قابيل

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

الإدارة : ١١ شارع جواد حسنى

ص . ب ١٣٠ القاهرة – ت : ٣٩٢٥٥٢٣

٨١٨ محمد ماهر قابيل.
م ح ف ى
فى المشمش / بقلم محمد ماهر قابيل.- القاهرة : دار الفكر العربى ؛ إيداع ١٩٩١.

١٦ ص : مص ؛ ٢٤ سم .- ([سلسلة] قصة مثل ؛ ٢)

تدمك : ٣ - ٠٥١٠ - ١٠ - ٩٧٧.

١- الأمثال العامية العربية. أ- العنوان. ب- السلسلة.

كان هاشم وحجاج تاجرين، يبيعان الفاكهة فى إحدى المدن الصغيرة، ومن بين جميع تجار الخضر والفاكهة فى المدينة كانت لهاشم وحجاج شهرة خاصة. فقد كان لهما محل على ناصية الشارع الرئيسى المؤدى إلى السوق الكبير، والذى يبدأ من محطة القطار ، ويمر بشونة الحبوب، والمحلج، ونقطة الشرطة، والمدرسة الثانوية، وعملية المياه، والمستشفى، ومكتب البريد، والمدرسة الإعدادية، والجمعية الزراعية، وشادر الحاج عبد الباسط، ودكان الشيخ فتح الله، وحديقة الأستاذ علوى، حتى يصل إلى السوق الصغير الخاص بالخضر والفاكهة والحلوى والسردين والبقالة والأقمشة والملابس والعطور ولعب الأطفال وغيرها، لينتهى إلى السوق الكبير المخصص للماشية والذهب والفضة.

ولم يكن الموقع وحده هو السبب فى شهرة هاشم وحجاج. فقد كانا معروفين بسوء الأدب، وهو سلاح مخيف فى المجتمعات الضيقة، يظهر بوضوح فى أوقات المعارك السلمية، ولاسيما فى أيام الانتخابات. فما يكاد سليم درويش نائب الدائرة يصل إلى المدينة حتى يهرع هاشم وحجاج إلى مقابلته، فينفحهما مبلغا من المال يتقاسمانه، ليتقافزا على الفور كقردين صائحين :



- سليم بك ياحلاوة عليه.

ثم يعتلى أحدهما مقعدا ويهتف :

- تسلم وتعيش ياسليم درويش.

ويرقص الآخر على الأرض فى هزات متسقة مع الهتاف.

أما السبب الثالث فى شهرة هاشم وحجاج فهو ارتفاع أسعار فواكههما ارتفاعا لايبرره إلا الطمع والجشع. فقد كانا ينفردان دون غيرهما من تجار الفاكهة بمصادر أخرى للدخل. ليس أولها ما يصيبهما من خيرات النائب سليم درويش وأمثاله من أكابر الناحية،

وليس آخرها ما تردد عنهما من أنهما يستتران بتجارة الفاكهة ليخفيا وراءها عملهما الحقيقى المتمثل فى تجارة الحشيش والأفيون.

وكثيرا ماكان هاشم وحجاج يتشاجران معا، أو مع غيرهما من أهل المدينة. فكان الحريصون على كرامتهم من الناس يتحاشون الاحتكاك بهما صونا للعرض من سافلين لاعرض لهما ولا شرف. كما كانا يماطلان فى سداد إيجار محلهما حتى استاء منهما مالكه الحاج عفيفى.

وذات ليلة، استقبل الحاج عفيفى فى بيته بعض أصدقائه. وكان من بينهم أمين الصراف، وعبد المطلب مدرس اللغة العربية بالمدرسة الإعدادية، وشابون وكيل مكتب البريد، وحافظ مدير الجمعية الزراعية، وغيرهم. ودار بينهم حديث السمر مع أكواب الشاى، وفناجين القهوة حتى جاء ذكر هاشم وحجاج فقال الحاج عفيفى :

– فاض بى والله من هذين الولدين.

وأمن الصراف على كلام الحاج قائلا :

– ومن سمعك ياحاج.

قال الأستاذ عبد المطلب :

– بالأمس جاءنى ضيفان على غير موعد. زميلان كانا فى لجنة سير امتحان بالمدرسة الثانوية، ومرا بى للتحية. فأرسلت ابنى لشراء مزيد من الفاكهة لبعد الغداء. فعاد إلينا بموز. أستغفر الله العظيم.

قال شابون :

– ردىء ياأستاذ عبد المطلب ؟

أجاب عبد المطلب متألما :

– جدا حتى أحرجنى أمام ضيفىّ. والأدهى من ذلك أنهما باعاه بضعف ثمن السوق، وشكا الولد بعد انصراف الضيفين من وقاحة الولدين فى معاملته أثناء الشراء.

عندئذ قال حافظ :

– لايجوز أن نقف أمامهما مكتوفى الأيدى. لابد أن نتحرك وبسرعة.

قال الحاج عفيفى يائسا :

– وماذا نستطيع أن نفعل ؟ إنهما كلبان عقوران.

قال الصراف فى حزم :

– نطردهما ياحاج من محلك.

قال الحاج فى أسى :

– ليتنا نقدر. لكن كيف ؟

أجاب الصراف فى ثقة :

– عندى خطة محكمة.

* * *

وفى اليوم التالى، ذهب الحاج عفيفى، وأمين الصراف، وحافظ مدير الجمعية الزراعية إلى هاشم وحجاج، وألقوا عليهما السلام، ثم جلسوا يتحدثون إليهما فى ود ظاهر. قال الصراف بتؤدة :

– الدنيا تتقدم.. لاشىء يظل على حاله.

وقال حافظ معززا :

– والزمن لاينتظر أحدا. الذى لا يسايره يضيع.

قال هاشم وهو ينظر إلى حجاج :

– معك حق. الكل يتغير.

التقط الصراف الفرصة وقال :

– إلا أنتما ياهاشم.

تساءل حجاج مبتسما :

– وهل تتغير الفاكهة أيضا ؟

أجاب الصراف موضحا :

– ولم لا ياحجاج ؟ الفاكهة هى الفاكهة. لكن طريقة العرض تختلف، ومكان العرض يتطور؛ فيزداد الإقبال، ويكثر الربح.

قال هاشم مستفهما :

– زدنا علما أفادك الله.

قال الصراف مفصلا :

– خذ مثلا محلكما هذا . لابد من هدمه، وإعادة بنائه على شكل لائق جذاب.

فهم هاشم وحجاج الغرض من الاقتراح؛ فتبادلا النظرات، ثم قال هاشم :

– فكرة عظيمة بلاشك. لكن ذلك يحتاج إلى تكاليف لاطاقة لنا بها . هل تقرضنا ؟

رد الصراف مستبشرا بنجاح خطته :

– بكل سرور ياهاشم. كم تريد ؟

* * *

فى الموعد المحدد للهدم، جاء العمال يحملون معاولهم. وكان الصراف قد أوصاهم باحتمال بذاءة هاشم وحجاج حتى يتم الهدم فيمكن طردهما .

ألقى كبيرهم السلام فرد عليه هاشم متبجحا :

– الله لايسلم الأوباش.

ابتلع الرجل الإهانة ضاحكا حتى يمر الموقف بسلام، وينجز المهمة الشائكة التى جاء من أجلها . فقال حجاج ساخرا :

– قبل أن تبدأوا : إياكم وهدم السقف فإننا نريد الاحتفاظ به كما هو.

بدا الذهول على وجوه الرجال لكن هاشم عاجلهم مؤمنا على تحذير صاحبه لهم بقوله:

– نعم، عليكم بهدم الجدران الأربعة فقط، أما السقف فلايمسه أحدكم، وإلا حطمته كما تحطمون حائطا قديما.

تظاهر الرجال بأنهم يستملحون الدعابة فضحكوا وقال أحدهم :

– نعلقه فى السماء بالحبال.

وقال كبيرهم :

– بل نرفعه بأيدينا حتى لايسقط على الأرض.

رد حجاج مستهزئا :

– الأفضل أن تحملوه على أكتافكم.

عقب هاشم قائلا :

– ولكم الشرف، إنه سقف مبارك، بناه جدى قبل أن يولد أبى، ألا تعرفون جدى ؟ لقد كان مرشحا لحكم البلد ذات يوم !

أردف حجاج مكملا :

– سقف الحكومة، ياويل من يهدمه.

وعلى هذا المنوال، ظل الشقيان يسخران من العمال، ثم طرداهم شر طردة.

* * *

وفكر الحاج عفيفى وصحبه فى محاولة أخرى، فأوعزوا إلى بعض رجالهم أن يسكبوا ماء غزيرا بجوار المحل حتى تتداعى جدرانه، لكن هاشم وحجاج انتبها لذلك، وحالا دونه ثم أوسعا الرجال شتما وسبا، وقال لهم هاشم :

– قولوا للحاج إن لحمنا مر، ولم يخلق من يأكلنا.

وعاد الحاج عفيفى إلى التشاور مع أصدقائه. فقال الصراف، وهو يشرب القهوة :

- احترنا فى هذين اللئيمين.

علق الحاج عفيفى قائلا :

- لاحد لدهائهما ، ولاقبل لنا بمكرهما.

قال الأستاذ عبد المطلب :

- كل عقدة ولها حل ياحاج.

اعترض شابون آسفا :

- إلا هذه العقدة. خبيثان لاينفع معهما عقل إنس ولا جان.

قال حافظ باعتداد :

- وما رأيكم فيمن يدلكم على مخرج ؟

رد الحاج عفيفى مندفعا :

- عجّل بربك.

غض حافظ من صوته قائلا :

- نكلف بعض الصبية بالحفر ليلا فى جدار المحل حتى يتداعى.

قال شابون محتجا :

- مستحيل. أين نجد هؤلاء الصبية الذين يقبلون تحمل هذه المخاطرة ؟

قل غير ذلك يارجل.

وصاح الحاج عفيفى :

- وكيف يفلتون من خفير الدرك ؟

قال الأستاذ عبد المطلب :

- يبدو أن قلة الحيلة ستورطنا فى جناية.



أيده الصراف قائلا :

- تحريض على تخريب.

قال حافظ بلهجة الواثق :

- دعوا تدبير الأمر لى.

* * *

فى اليوم التالى، جمع حافظ بعض صبية الشارع فى بيته، وأسر إليهم بمؤامرته، فأبدى الأولاد الموافقة والاستحسان. لكن أحدهم أفشى السر لهاشم الذى كافأه بتفاحة لذيذة، ومنع الصغار من اللعب بجوار محله، وتناوب مع حجاج على حراسته ليل نهار.

* * *

وذهب الحاج عفيفى مع أصدقائه أمين وعبد المطلب وشابون لزيارة مدير المحلج فخر الدين الشيخ. وكان رجلا مثقفا مستنيرا يواظب على قراءة الصحف والكتب مما أكسبه سعة أفق ونفاذ بصيرة. وبدأ حوارهم كالمعتاد ببعض العبارات التقليدية عن الطقس، ثم تطرقوا إلى السياسة فأدلى كل منهم بدلوه فى أحداثها، وانتقلوا منها إلى الاقتصاد فما كادوا يصلون إلى الغلاء حتى جاء ذكر هاشم وحجاج. قال شابون ضاحكا :

- كدنا نتورط فى داهية لولا لطف الله.

تساءل فخر الدين فى قلق :

- خير إن شاء الله ؟

أجاب شابون مستمرا فى ضحكه :

- اقترح حافظ أن نوعز إلى الصبية بالحفر فى جدار محل الحاج عفيفى الذى يستأجره هذان الشقيان حتى يسقط.

شاركه فخر الدين الضحك مقهقها وهو يقول :

- يالها من فكرة رائعة. تقودكم إلى باب السجن مباشرة.

قال الحاج عفيفى :

– صاحب الحاجة أهوج.

قال فخر الدين مصححا :

– لكنه ليس مجنونا ياحاج.

قال عبد المطلب :

– أهوج أو مجنون، ربنا ستر والسلام.

قال أمين مهموما :

– لكننا يجب أن نصل إلى حل.

قال فخر الدين فى هدوء :

– المسألة أبسط مما تتصورون. الحل الحاسم لمثل هذه المشكلة أن نمتنع جميعا عن الشراء من هذين الشخصين. كل ما نحتاجه لذلك هو التنظيم وتوزيع الأدوار.

وافقه الجميع على رأيه، وتعاونوا مخلصين فى إقناع الناس به، فكسدت تجارة هاشم وحجاج، وفسدت فاكهتهما ، وتراكمت ديونهما، فاضطرا إلى اصطناع حسن الخلق، وتأدبا مع سائر الناس، وخفضا أسعارهما، وكفا عن الشجار، وباعا بعض ثيابهما لسداد الإيجار. لكن كل ذلك لم يشفع لهما عند الناس. فتدهورت حالهما حتى عجزا تماما عن سداد الإيجار، وتمكن الحاج عفيفى من طردهما. وأقام بهذه المناسبة السعيدة مأدبة فى بيته دعا إليها أصدقاءه. وكان ضيف الشرف فيها هو فخر الدين الشيخ.

وتبارى المدعوون يمتدحونه فقال الحاج عفيفى مضيفهم :

– إنه عقلنا الراجح ولاشك.

وعزت على الأستاذ عبد المطلب بلاغته فقال مفخما حروفه :

– لو كنا فى أوروبا لأقمنا له تمثالا.

انفجر الجميع ضاحكين. فقال أمين الصراف :

– تا الله يافخرى أقول قصيدة ∴ فيها القوافى لؤلؤٌ منثور

أبدى الأستاذ عبد المطلب إعجابه قائلا :

– أحسنت المبنى ، وأجدت المعنى. أكمل ياشاعر العرب الملهم.

انتشى أمين، وقال على البديهة معرضا ببائعى الفاكهة المطرودين :

– أهدى إليك من الفواكه خوخة ∴ تزهو بها جناتنا والحور

قال شابون وهو ينتزع قطعة كبيرة من فخذ الضأن بيده، ويحملها متلمظا إلى فمه :

– لكأنها فوق الموائد ماســة ∴ وكأن شعرك عندها مكسور

وواصلوا ضحكهم. فقال حافظ :

– أو أننا بين الخلائق صحبة ∴ أنت المنير ببابها والنــور

قال أمين ، وهو يرفع إلى فمه ملعقة من الأرز المعمر الشهى :

– يبدو أنكم جميعا من الشعراء العباقرة. ولو أنصف الحاج لأقام لكم ندوة بدلا من المأدبة.

احتج شابون صائحا :

– فأل الله ولا فألك يارجل. تريد أن تحرمنا كرم الحاج وفضله.

قال الحاج مبتسما فى تواضع :

– الفضل لله ، ولصاحب الفكرة النيرة.

قال فخر الدين فى خجل :

– العفو ياحاج. لكن ماذا سيفعل هذان الشقيان بعد طردهما ؟

أجاب الحاج مشيحا بيده :

– لا شأن لى.. المهم أننى تخلصت من رذائلهما.



قال عبد المطلب :

– لا أحد يطيقهما .

أردف فخر الدين مؤكدا :

– لن يفتح لهما باب.

قال شابون معقبا :

– ولن يقبل أحد أن يعملا عنده أجيرين.

أعرب أمين عن احتقاره قائلا :

– وهل يستخدم عاقل مثل هذين ؟

قال حافظ وهو ينثر الملح على اللحم :

– لا يأتمنهما على ماله إلا أحمق.

علق فخر الدين قائلا :

– وقد أثبت أهل مدينتنا أنهم جميعا من الحكماء.

قال الحاج عفيفى مجاملا فى صدق :

– ليت الناس فى كل مكان يعرفون هذه الحكاية ، ويستفيدون بمغزاها فى حياتهم كلما واجهتهم مشكلة من هذا النوع.

قال عبد المطلب :

– إن مقاطعة التجار المستغلين سلاح لامثيل له.

تحفظ فخر الدين قائلا :

– لكنه سلاح يصعب اللجوء إليه، لأنه يقتضى درجة من الإجماع توافرت فى حالتنا ، لكنها قد لا تتوافر فى كل الحالات.

قال شابون :

– العبرة بالوعى.. النجاح فى توعية الناس بمصالحهم هو المحك الأول، وهو الفيصل فى مثل هذه الأمور.

قال فخر الدين مؤيدا :

– معك حق. لكننى مازلت أرغب فى معرفة مصير هذين الولدين.

رد شابون :

– سنرى بأنفسنا قريبا.

* * *

اضطر هاشم وحجاج إلى التجول بفاكهة الموسم لبيعها. فكان هاشم يحمل الفاكهة يوما ، وحجاج ينادى عليها ، ثم يحملها فى اليوم التالى، وهاشم ينادى عليها. وكانت للأخير قدرة على التفنن فى نداءاته. فيقول مناديا على التفاح :

– ياأكل المرتاح. ياحمر ياتفاح.

أما إذا كانا يبيعان المانجو فإنه يتقافز مهللا :

– ياهندى وعظيمة. أصيلة وكريمة !

وفى موسم البطيخ يصيح قائلا :

– يازرع المريخ ! ياشهد البطيخ.

أما الشمام فيقول عنه :

– ياحلاوة الشمام. كل من غير كلام.

ويهتف للخوخ قائلا :

– ياخوخ الجنينة. كل والحساب علينا !

لكن الناس استمروا فى مقاطعتهما. فكانوا يضحكون لسجع هاشم، ولايقربونه لشراء. فلما يئس من تلك المدينة قال لحجاج فى حزن :

- أرأيت ما وصلنا إليه من ضنك ؟

أجاب حجاج :

- أراه وأعيشه ياصديقى.

عاد هاشم يسأل :

- وبماذا نستطيع الخروج من هذا المأزق ؟

أجاب حجاج مستسلما :

- بالصبر ياأخى.

عارضه هاشم قائلا :

- إن الصبر مع العجز ضعف لايليق بالرجال.

قال حجاج محبطا :

- وهل بقيت لنا قدرة أو قوة بعد كل ماجرى ؟

رد هاشم مندفعا :

- أرض الله واسعة.

أدرك حجاج قصده فسأله مستوضحا :

- تعنى أن نهاجر ؟

قال هاشم :

- ولم لا ؟ ما الذى يمنعنا ؟ لم يعد لنا عيش هنا. ومن العبث أن نبقى بأرض تلفظنا.

قال حجاج كمن يتحدث إلى نفسه :

- ولكنها أرضنا.. أرض آبائنا وأجدادنا. من يفرط فى أرضه يفرط فى عرضه.

نظر إليه هاشم ساخرا، وقال :

- متى هبطت عليك هذه العواطف ؟ أنت تتحدث عن الأرض والعرض، والآباء والأجداد؟

قال حجاج على استحياء :

– أنا إنسان ياهاشم.

أشار هاشم بيديه قائلا :

– لم أقل غير ذلك، ولكن أرضى تكون حيث يكون رزقى.

لم يجد حجاج فائدة من المناقشة فقال :

– وإلى أين تريدنا أن نتجه ؟

أجاب هاشم :

– إننا لن نبتعد كثيرا. إلى المدينة المجاورة فقط. هناك نبدأ حياة لا يطاردنا فيها ماضينا.

واتفق الصديقان على أن يتقاسما العمل بالموسم لا باليوم. وجاء موسم المشمش فحمله هاشم على كتفيه، وسار حجاج وراءه ينادى، ويمد يده من حين إلى حين فيأخذ ثمرة ليأكلها مستمتعا. وضاق هاشم بصاحبه، لكنه لم يفصح له عن ضيقه، وأضمر فى نفسه أمرا.

وفى موسم العنب ، حمل حجاج العناقيد ثقيلة على كتفيه، وسار هاشم وراءه ينادى، ويأكل بضع حبات من العنب دفعة واحدة. ثم يكرر النداء ، ويتناول عنقودا كاملا فيلتهمه على مرتين أو ثلاث.

وتملك الغيظ من حجاج، لكنه تذكر ماكان يفعل فكظمه. حتى فقد السيطرة على نفسه، فقال لصاحبه :

– كل ياأخى حبة حبة.

قال هاشم ساخرا :

– فى المشمش.

رقم الإيداع	٧٨٢٤ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	٣- ٠٥١٠ - ١٠ - ٩٧٧